بحوث في التاريخ العربي الإسلامي

الدكتور أبو القاسم سعد الله

دار الغرب الإسلامي

470

وكان ذلك سنة 1828 م، فأنجدته بريطانيا ولكنها انسحبت بعد سنتين فرجعت سلطة الأيمة الإباضية بدون منازع سنة 1835 م، بل إن هذه السلطة أصبحت مباشرة. وقد شهدت سنة 1840 م حلول زنجبار محل مسقط كمقر للحكومة الإمامية، ودام ذلك إلى سنة 1856م، وهي تاريخ وفاة السلطان سعيد، وتنازع الأبناء وانفصال زنجبار عن مسقط، وهي السنة التي تمثل كذلك تاريخ التدخل البريطاني الذي أشرنا إليه، والذي انتهى باتفاق سنة 1861م. (ص 12 ـ 15، R.M.M.II،19).

2001/11/18م

قسم التاريخ/ جامعة آل البيت (الأردن)

بين القطبين: أطفيش والسالمي

هناك أوجه عديدة للمقارنة بين عالمين متعاصرين أحدهما قطب من المغرب وهو الشيخ محمد يوسف أطفيش والثاني قطب من المشرق، وهو الشيخ عبد الله السالمي، وهذه الورقة ستحاول إلقاء الضوء على بعض أوجه التشابه والاختلاف بين حياة الشيخين أو القطبين، وقد كنا درسنا حياة الأول (أطفيش) في عدة مناسبات، ولذلك لن نطيل الحديث عنها هنا، ونكتفي بإحالة القارىء على ما كتبناه عنه في غير هذا المكان[1]. أما الشيخ السالمي فلم ندرسه من قبل، ولذلك سنتوقف عند مراحل حياته بعض التوقف. وقد لاحظنا أن من كتبوا عنه حتى الآن يكثرون من المدح والإشادة به وبمؤلفاته مما قد يجعل الصورة عنه غير صقيلة.

ولد الشيخ أطفيش سنة 1236 في ميزاب، وهو من بني عدي، وميزاب مجموعة من الواحات المتقاربة الواقعة في جنوب الجزائر بين هضاب صخرية ذات نخيل وطقس بارد شتاءً وحار صيفاً، وكان تعليمه ذاتياً في أغلبه، ما عدا دراسته على أخيه إبراهيم الذي تتلمذ عليه وهو ناضج نسبياً. ولكن الموهبة التي كان يتمتع بها لم تقف به عند حد التتلمذ المعتاد، فالكتب والعلماء والمساجد متوفرة. وكان بإمكانه أن يعتمد على نفسه بعد أن حفظ القرآن الكريم وأخذ مبادىء الدين والعلوم العربية. ولذلك بدأ في التأليف مبكراً ليختبر موهبته في الإنتاج العلمي، وقد بدأ بموضوع صعب وهو النحو، قبل أن يتجاوز العشرين. ثم سال قلمه وانقدح ذهنه فألف في علوم شتى حتى قيل إن تآليفه تجاوزت الثلاثمائة بين مطول ومقصر. ولنتصور هنا أن متعلماً يعيش في بيئة صحراوية جافة وتحت استعمار فرنسي بغيض يؤلف في التفسير والحديث والفقه المطولات. وكذلك في اللغة والأدب والمسير.

وبالإضافة إلى الإنتاج العلمي أسهم الشيخ أطفيش في الحياة العامة في ميزاب،

(*) هذه الورقة ألقينا خلاصتها في مدينة (إبرة) بعُمان خلال رمضان 1422 (2001) ثم صغناها وقدمناها للنشر لمجلة وزارة الأوقاف، عُمان.

(1) أنظر ورقتنا: محمد بن يوسف أطفيش ودوره الثقافي، ملتقى عُمان الأول، جامعة آل البيت، سنة 2000 م.

فقد تولى المسؤوليات الاجتماعية والدينية وأصدر الفتاوى، واجتهد في إيجاد الحلول الشرعية والسياسية لما كان يعيشه الناس من قضايا في علاقتهم مع الفرنسيين وعلاقتهم ببعضهم ومع الجيران ومع العالم الإسلامي. وكان مع ذلك حريصاً على إيصال رأيه إلى الخارج بأداء فريضة الحج والمراسلات والتجول في قطر الجزائر وفي واحات ميزاب نفسها. ومن وسائل اتصالاته طبع كتبه في الخارج - كما سنرى - في وقت كانت فيه الطباعة العربية ما تزال ضعيفة ومحدودة الإمكانات.

وفي الطرف الآخر نجد الشيخ السالمي الذي ولد في (الحوقين) سنة 1286 (1869م) بإقليم الرستاق، وهو من بني ضبة، وبعد أن حفظ القرآن الكريم ومبادىء علوم الدين على شيوخ الحوقين وبلغ الثانية عشرة من عمره كف بصره، فازداد تعلقاً بالعلم والبحث عن أهله. وهكذا ذهب إلى علماء الرستاق ومنهم الشيوخ: راشد بن سيف الملكي، وصالح بن علي الحارثي، وكان بالرستاق مساجد وزوايا ذات حلقات علمية فواظب على حضورها حتى نبغ في العلوم العقلية والنقلية، بل أصبح هو نفسه من الشيوخ المشار إليهم.

ويبدو أن تأثره كان كبيراً بالشيخ صالح الحارثي الذي كان يعيش في مدينة الشرقية، فهذا الشيخ هو الذي عرض على السالمي استيطان (القابل) فامتثل لعرضه، وهكذا عاش السالمي حياته في القابل وفيها ظهر أمره وألف كتبه وأخرج تلاميذه. وكان جلّ تكوينه على الشيخ صالح كما كان جلّ تكوين الشيخ القطب على يد أخيه الشيخ إبراهيم.

وبعد وفاة الشيخ صالح لازم السالمي ابنه الأمير عيسى بن صالح، بل أصبح من المساعدين له في تدبير شؤون السياسة، ومن المشيرين عليه برأي الدين والدنيا فيها. ويدلنا هذا وغيره على اتصاله المباشر بأمراء البلاد وحكامها وقد كان القطب أيضاً على صلة بالحكام الفرنسيين، ولكن من وجه مختلف.

ولكن السياسة لم تمنع السالمي، كما لم تمنع القطب، من تخريج التلاميذ وتصنيف الكتب والاهتمام بقضايا المسلمين العامة. فمن حيث التلاميذ أصبح السالمي صاحب مدرسة فكرية تعتمد الرؤية السلفية لإصلاح المجتمع، وكان تلاميذه من أهل العلم والحكم، ومن أهل عمان وغيرها، وبفضل تلاميذه شاع أمره وانتشرت مصنفاته وآراؤه. ويقول عنه أبو إسحاق أطفيش محقق كتابه (مشارق أنوار العقول) أن تلاميذه هم

صفوة البلاد الذين أخذوا بمقاليدها علماً وسياسة، وقامت الإمامة والملك على كاهلهم[1]. ويقول عنه في مكان آخر: «إن السالمي كان أكبر ركن في استقلال عمان.. من النير الأجنبي»[2]. ومن تلاميذه إثنان من عائلة واحدة وهما محمد بن عبد الله الخليلي الخروصي وسالم بن راشد الخروصي الذي تولى الإمامة العظمى، وأبو مالك عامر بن خميس الذي تولى رئاسة القضاء، ومنهم أيضاً ناصر بن راشد الخروصي شقيق سالم السابق، وهو الذي تولى لأخيه الرستاق حيث عاش الشيخ السالمي، وكذلك سليمان بن سيف الحميري، وهو الذي طلبه أهل زنجبار ليدرسهم فأذن له الشيخ السالمي في الذهاب إليهم[3].

وللشيخ السالمي مؤلفات في الدين واللغة والتاريخ. ومثل الشيخ القطب كان السالمي ينظم أرجوزة أحياناً أو متناً ثم يقوم بشرح النظم في كتاب مطول، على عادة القدماء، وهكذا كان الحال مع منظومة أنوار العقول التي أصبحت في الشرح مشارق أنوار العقول (في العقائد)، ومدارج الكمال التي أصبحت في الشرح معارج الكمال (في الفقه). ومن مؤلفاته أيضاً: شرح طلعة الشمس (في أصول الفقه)، وجوهر النظام (في الأحكام)، ومجموعة فتاوى. ومما يلاحظ أنه بدأ التأليف في علم النحو بعمل سماه بلوغ الأمل، وقد تضمن الاعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام. وكان القطب قد بدأ التأليف أيضاً بنظم المغني لابن هشام.

أما كتاب السالمي الذي لفت نظرنا أكثر من غيره فهو (تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان) الذي طبع في جزئين بمجلد واحد مرتين حتى الآن. وهو كتاب في الحوادث التي عرفتها عمان منذ فجر التاريخ الإسلامي، بما في ذلك أطوارها التاريخية وولاتها وأئمتها وعلاقاتها الداخلية والخارجية، وأخبار أهل العلم والقضاء. وكان الشيخ السالمي قد فكر في مشروع كبير يؤرخ فيه للمذهب الإباضي وأهله في الحجاز والعراق والمغرب واليمن وخراسان وغيرها منذ عهد الصحابة إلى عهده هو. وقد خشي ألا يكون في استطاعته إكماله لأن مشروعاً كهذا يحتاج إلى جهد عظيم ووقت طويل، فقرر أن يكتب أولاً «سيرة

(1) عبد الله السالمي، مشارق أنوار العقول، تصحيح وتعليق أحمد بن حمد الخليلي، دار الجيل، بيروت، 1989م، ص 27 ـ 28.

(2) أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري، الدعاية إلى سبيل المؤمنين، المطبعة السلفية، القاهرة، 1923م، ص 26.

(3) مشارق، مصدر سابق، ص 28.

أهل عمان» فإذا أطال الله في عمره وتوفرت له المراجع والمصادر أكمل المشروع الموسع في أربعة مجلدات.

وعلى كل حال فقد بدأ الجزء الأول بمقدمة في التعريف بعمان وختمه بعهد ملوك بني نبهان المتأخرين. أما الجزء الثاني فبدأه بإمامة ناصر بن مرشد اليعربي وأنهاه بسنة 1328، وهي السنة التي توفي فيها فيصل بن حمود بن عزان. وكان السالمي قد بدأ تأليفه سنة 1330 أي قبل وفاته هو بسنتين تقريباً، وربما يكون (تحفة الأعيان) آخر تآليفه.

اعتنى بنشر وتصحيح (تحفة الأعيان) الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش من مكانه في دار الكتب المصرية بالقاهرة، فقد قدم له كما كتب له خاتمة، وعلق عليه بما رأى في أنه بحاجة إلى تعليق. والكتاب غير مقسم إلى فصول وإنما إلى أبواب تتخللها عبارة ذكر كذا ونحو ذلك. وهو يتتبع الأحداث التي عرفتها عمان عبر تاريخها، بما في ذلك طريقة التداول على السلطة من قبل الأيمة والولاة بالدرجة الأولى. وقال عنه أبو إسحاق في آخر الجزء الأول: «وهو تاريخ جمع بين دفتيه ثروة من أطوار عمان ودوله وأئمته وملوكه ما يشتاق إليه كل مولع بأحوال المسلمين»[1].

ومع ذلك فإن الشيخ أبا إسحاق انتقد منهج الشيخ السالمي في تأليف الكتاب، فالشيخ في نظره وإن أحسن ترتيب أطوار الحكم بعمان منذ ظهور الحكم المستقل في عهد التابعين إلى آخر أيام المؤلف، فإنه قد فاته ضم رسائل أئمة العلم إلى أئمة الحكم لوجود علاقة وثيقة بتاريخ الحكام أنفسم، ذلك أن السالمي جاء بعدد كبير من عهود الأئمة إلى ولاتهم وقضاتهم وأمرائهم، أما رسائل أهل العلم فلا نكاد نجد لها ذكراً في الكتاب[2]. وربما يرجع ذلك في نظر أبي إسحاق إلى عدم وثوق الشيخ السالمي ببعض

(1) مشارق، مصدر سابق، ص 402.

(2) قيل إن المنظومة تزيد عن 300 بيت. (طبع في مصر أول مرة، د.ت، ثم طـ. 2 قامت بها مكتبة الاستقامة بعمان، وقد علق على هامشه المفتي أحمد بن حميد الخليلي) ومشارق أنوار العقول يقع في مقدمة وأربعة أركان وخاتمة، والأركان هي: في العلم، وبيان الجملة وتفسيرها وفي الولاية والبراءة، ثم في التوبة وأحكامها. وقد جعل لكل ركن أبواباً، والمشارق حققه عبد الرحمن عميرة، طـ 1، دار الجيل، بيروت، 1409هـ/ 1989م. عن الرد على نقد أبي إسحاق للسالمي انظر: حمدون بن سليمان بن سالم السالمي: «السالمي مؤرخاً في كتاب قراءات في فكر السالمي، إشراف سالم بن محمد الغيلاني، وزارة التراث القومي، عمان، 1993م، ص 143 وكذلك الشيخ إسماعيل بن علي الأكوع «المنهج العلمي في مؤلفات السالمي التاريخية»، في نفس المصدر، ص 33 وما بعدها.

هذه الرسائل. ومن جهة أخرى، فإنه كان على الشيخ السالمي حسب رأي أبي إسحاق أن يذكر ما حصل في عهد كل إمام من تقدم وعدل وعلم، وما وطده من أمن ورخاء بين الناس، وما أجرى من مشاورات مع أهل الحل والعقد من العلماء وأضرابهم، كما أن السالمي لم يقدم للقارىء صورة عن مساوىء الحكام المستبدين وما ارتكبوه من انتهاكات. وكأني بالشيخ أبي إسحاق يريد أن يقول إن الكتاب غير متوازن في الصورة التي قدمها عن الحكام، فهو يقول: «من مقتضى التاريخ أن يلم بكل أدوار الأمة التي يكتب عنها الكاتب» أي أن الشيخ السالمي لم يكن يتمتع ربما بالحس التاريخي الذي كان يتمتع به أبو إسحاق، رغم أن هذا قد اعتذر لصاحبه بأن علماء الشريعة يتورعون عادة عن ذكر الحوادث التي فيها جور وظلم حتى لا يكون ذلك كأنه نشر الباطل. ومع ذلك فالشيخ أبو إسحاق يرى أن «هذا ليس بعذر واخطأ من يلتمسه»، ولعل عذر الشيخ السالمي «أن ما عنده من وثائق لا يمكنه من الوثوق بما كان يرويه»، ثم أنه جاء ببعض النماذج من الحكام المستبدين الذين كانوا نكبة على الأمة حسب رأي أبي إسحاق[1].

وقبل أن نطوي صفحة الحديث عن مؤلفات السالمي نشير إلى أن بعضها يسير على نفس النسق مع بعض مؤلفات القطب، فتحفة الأعيان يذكرنا بالرسالة الشافية للقطب، فهي أيضاً تتحدث عن تاريخ ميزاب وأهلها.

إن هناك إشارات تدل على إعجاب السالمي بأطفيش، ومراسلات جرت بين أهل المغرب وأهل عمان. وقد قيل إن لقب (قطب العلماء) كان السالمي أول من أطلقه على القطب، بينما لقب (نور الدين) أطلقه أطفيش على السالمي. ويبدو أن المراسلات كانت جارية بين الرجلين، وكذلك بين أهل عمان وأهل المغرب (ربما المقصود بهم هنا أهل ميزاب وجيرانهم في ليبيا وتونس). فعند تعيين الإمام عزان بن قيس كتب سعيد بن خلفان الخليلي إلى أهل المغرب من الإباضية يصف لهم ما حدث من التدني في شؤون الدين «وولاية الإمام المذكور الذي هو الآن في عمان قائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويظهر السنن ويميت البدع» ولذلك وجب إخبارهم بالتطورات التي حصلت في عمان بعد بيعته «لأنكم شركاء في كل ما كان من الأمور الدينية المحمدية. وكان ذلك بتاريخ 12 ذي القعدة، 1285. وقد أضاف السالمي أن كتاب الخليلي كتب بعد البيعة بأربعة أشهر وبضعة أيام، وقال إنه لم يقف على جواب أهل المغرب على الكتاب وإنما وقف على قصيدة نظمها «عالم المغرب وقطب العلماء محمد بن يوسف أطفيش، متعنا الله بحياته»،

(1) تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان، مكتبة الاستقامة، عمان، 1980م، ج 2، طـ 2، ص 218 ـ 219.

والإشارة هنا إلى القصيدة اللامية التي قالها القطب في الإمام عزان بن قيس، ومما جاء فيه ـ حسب الشيخ السالمي ـ أن أطفيش سيصل إلى عمان لنصرة الإمام، ثم استدرك السالمي قائلاً: «وقد غابت عني القصيدة غير أني أحفظ منها قوله:

على ماء ببحر الروم آتيك مسرعاً إذا شاء ربي أو ببرّ كرئبال

وقد ختم السالمي روايته بقوله: «فانقضى أمر الدولة قبل وصول العالم المغربي، ولكل امرى ما نوى»[1].

ومن الواضح أن الحادثة وقعت قبل ميلاد الشيخ السالمي نفسه، وأنه قد اطلع على وثائق العهد الذي كان يكتب عنه فوجد هذه المراسلة بين علماء الإباضية مغرباً ومشرقاً. ثم توطدت الصلات بين القطبين رغم أننا لم نعثر على رسائل مباشرة بينهما حتى الآن[2].

وفي أحد هوامش كتاب تحفة الأعيان نقرأ أن الشيخ أطفيش كان يتراسل مع شيخ عماني من أخيار العلماء وهو سعيد بن علي الصقري المتوفى سنة 1301 والذي كان يتمتع بسمعة خاصة لدى علماء المغرب، ومنهم أطفيش نفسه، فقد ثبت أن هذا الشيخ كان يرسل إلى الصقري بعض تآليفه ليقوم هذا على طبعها وتوزيعها، ومنها كتبه الثلاثة في البلاغة والتي كتب على كل منها عبارة موحدة مما يدل على انتزاع الكلفة بينهما، وهي «يرسل إلى الشيخ سعيد الصقري ليطبعه ثم يرده». وقد أضاف صاحب التعليق قوله: «وقد رأيت مثل هذا على كثير من تآليفه (أي أطفيش) الأولى، ويظهر أنه كان عازماً على طبع كثير من تآليف شيخنا، ولم تسعفه المقادير فعجلته بالموت، رحمهما الله»[3]. والغالب أن هذا التعليق إنما هو لأبي إسحاق إبراهيم وليس للسالمي.

وإذا كان لأطفيش موقف من السياسة الفرنسية في الجزائر، وخاصة في ميزاب، فإن للسالمي أيضاً موقفاً من السياسة الإنجليزية في عمان. ونحن نلاحظ أن السالمي كان

(1) تحفة الأعيان، مصدر سابق، ص 249 ـ 250.

(2) «يقول أحدهم كان السالمي على اتصال بعلماء مصر وبينه وبين بعضهم مراسلات ومكاتبات واستفتاءات، ولا سيما الإمام القطب محمد بن يوسف أطفيش»، وقد قام القطب بتدريس تلاميذه في مؤلفات السالمي وأعجب بها وأثنى على مؤلفهما. انظر: كتاب قراءات في فكر السالمي (حصاد ندوة)، ط 1، وزارة التراث القومي، عمان، 19، ص 147، وفي صفحة 117 جاء أنه كان للسالمي مراسلات مع الشيخ القطب وسليمان الباروني.

(3) تحفة الأعيان، مصدر سابق، ط 2، ج 2، ص 293.

لا يذكر البرتغاليين ولا الإنجليز إلا منزعجاً منهم وبصورة تدل خاصة على معاداته للاستعمار الإنجليزي الذي تطاول على العمانيين. وفي (تحفة الأعيان) عينات من ذلك. ونكتفي هنا بذكره لحادثة جرت للقنصل الإنجليزي الذي أراد أن يطلع على مناجم الفحم في جبل الصخام، رغم معارضة الأهالي وأمير الناحية. ففي سنة 1319 خرج القنصل، بعد أن استأذن السلطان، متوجهاً إلى الشرقية، ولكن الأمير ورؤساء القبائل تضامنوا واتفقوا على منعه «خوفاً من غوائله»، وبعد تدخل السلطان الذي أرسل ابنه وبعض خواصه، وبعد مفاوضات دقيقة تفادياً للخلاف وإراقة الدماء تركوا القنصل يزور زيارة خاطفة الجبل الذي فيه «حجر يحمل لوقيد النار في المراكب وغيرها، وأكثر عمل المراكب عليه»[1] وكان بعض الناس غير راضين حتى بزيارته الخاطفة ورؤيته للجبل أصلاً لأنهم فيما يبدو، كانوا يعرفون مهمة القنصل وهي التجسس على موارد البلاد. لذلك قطع هؤلاء الناقمون الطريق إلى جبل الصخام وأطلقوا النار على قافلة القنصل فأردوا حصانه قتيلاً ووقع القنصل على الأرض وزحف على بطنه «كهيئة السابح في البحر» وكادوا يقتلونه لولا حمايته من بعض المرافقين له. وقد علق السالمي على رؤية القنصل للجبل بقوله «فَأَروه إياه على عجل وأزعجوه في الرجوع، فلم يتمكن من رؤيته كما أراد... ورد الله كيد البالوز (القنصل) في نحره... نسأل الله أن يحفظ بلاد الإسلام»[2].

وكما اهتم أطفيش بقضايا العالم الإسلامي كذلك فعل السالمي. فنهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين شهدت مظاهر يقظة إسلامية على يد حركة سلفية تجاوبت في المشرق والمغرب، وكان أطفيش والسالمي في نفس التيار السلفي الإصلاحي الذي يعمل على إنهاض الأمة الإسلامية واسترجاع وحدتها وقوتها. وكان تلميذ أطفيش، وربما السالمي أيضاً، وهو سليمان الباروني باشا عضواً في مجلس الأعيان العثماني، فطلب برسالة طويلة من الشيخ السالمي جواباً يتضمن حلولاً جذرية لوحدة الأمة الإسلامية والقضاء على ما بينها من فرقة وضعف. فأجابه السالمي جواباً تضمن نقاطاً هامة جديرا بدعاة اليوم التفكير فيها ملياً:

وهي:

1 ـ نوافق على أن منشأ التشتت في الأمة هو اختلاف المذاهب، بل هو السبب الأعظم في

(1) تحفة الأعيان، مصدر سابق، ج 2، ص 311.

(2) نفس المصدر، ص 312.

افتراق الأمة. ويبدو أن رأي الباروني هو أن اختلاف المذاهب هو سبب افتراق الأمة كما هو واضح من السياق.

2 ـ أن للتفرق أسباباً أخرى غير اختلاف المذاهب، فالمذهبية ليست هي السبب الوحيد، وإنما هي السبب الأعظم، كما قال. أما الأسباب الأخرى، فمنها التحاسد والتباغض والتكالب على الدنيا، بدليل أن الخلاف المذهبي لم يظهر إلا بعد التنازع على الرياسة والاستبداد بالسلطة لذلك أصبح المصلح هو الداعي إلى توحيد الأمة، وهناك طرق عديدة للإصلاح وجمع الشمل، أقربها التسميّ بالإسلام ونبذ الألقاب المذهبية بل العصبية المذهبية ونشدان الحق لنفسه.

4 ـ والمسألة في نظره متوقفه على الحكام، فلو نبذوا الخلاف المذهبي، واتبعوا الحق لأسرع الناس إلى قبول الوضع الجديد. فإذا لم يفعل الحكام ذلك فموضوع الوحدة صعب رغم أنه ممكن عقلاً.

5 ـ ولنجاح دعوة الإصلاح وجمع الشمل وتوحيد الأمة رأى السالمي أن مكة المكرمة هي أوفق البلاد لتجسيد الوحدة، فهي «مهبط الوحي ومتردد الملائكة ومقصد الخاص والعام».

6 ـ وبهذا الصدد رأى الشيخ السالمي أن عبد الله ابن أباض «لم يشرع لنا.. مذهباً وإنما نسبنا إليه لضرورة التميز حين ذهب كل فريق إلى طريق، أما الدين عندنا (ف) لم يتغير، والحمد لله».

وقد رفع السالمي شعاراً اشترك معه فيه غيره وهو الدعوة إلى الكتاب والسنة، ودعوة الملوك والرؤساء أولاً إلى الاتفاق والوحدة لأنهم إذا استجابوا استجابت الأمة وسهل الأمر عليها. وإلى ضرورة المطالبة بعقد مؤتمر يحضره علماء المسلمين وحكامهم وولاة الأمر منهم في مكة المكرمة. كما كرر السالمي ما قاله غيره عندئذ وهو (لا يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها)، وربما يذكرنا رأيه هذا بدعوة عبد الرحمن الكواكبي الذي دعا العرب إلى عقد مؤتمر في مكة في وقت معاصر لوقت السالمي. ولا ندري ماذا سيقول السالمي لو عاش إلى سنة 1924 أي بعد إلغاء الخلافة وما جاء بعدها من مؤتمرات للبحث في وسائل توحيد الأمة، وهي مؤتمرات فشلت كلها في إيجاد صيغة مقبولة للأغلبية على الأقل ولا نقول للجميع، كما فشلت اليوم دعوات التضامن العربي والإسلامي لمواجهة الأخطار المعروفة حتى للطفل ورجل الشارع[1].

(1) مشارق أنوار العقول، مصدر سابق، ص 22 ـ 23.

تحدث السالمي في آخر كتابه (التحفة) عن حجته إلى بيت الله الحرام وعن لقائه بالسلطان فيصل ونصحه إياه في خبر سجله كما تسجل المذكرات. فقال إنه أدى فريضة الحج بالبحر ولقى السلطان أثناء ذهابه ثم عودته من الحج، وأن السلطان قابله في المرتين بالتجلة والاحترام، وأنه طلب الاختلاء به بواسطة ابنه. وفي هذه الخلوة كلمه السالمي عن جمع الشمل والقيام بالعدل وتوحيد العرب تحت راية واحدة. ولاحظ أن السلطان لم يكن مهتماً بذلك وإنما كان مهتماً بأمور أخرى تتعلق بخصومه، فتجاهل السالمي ذلك وقال له: من غيرك؟ وهو يعني أنه لا يوجد غيرك في مسألة الحكم[1]. وأثناء رجوعه من الحج كتب من مركبه إلى السلطان يدعوه إلى رفع العشور والكرنتينة عن الحجاج فرفعهما بضع سنوات على الأقل.

واستمر السالمي يكتب مذكراته فقال إنه اجتمع وهو بمكة ببعض الناس «من قومنا» ـ وهو يريد بهم الأباضية فيما يبدو ـ وقال إن منهم من جاء من الهند ونافس في شؤون المذهب ونوه بأحد علماء الهند، الذي لم يكن على المذهب الأباضي ومع ذلك كان رجلاً أديباً ومستعداً لسماع آراء غيره في المذاهب، وكان هذا الرجل سبباً في اجتماع السالمي بعلماء الآفاق في هذا الموسم من الحج، وأخبر أنه «نجح في إظهار الحجة عليهم جميعاً واعترف بعضهم بالحق الذي في أيدينا»، ولكن السالمي لم يذكر ما دار في هذه المناظرة لطول الكلام فيه على الكتاب، كما قال[2].

وتظهر المواقف السابقة أن الشيخ السالمي كان يدافع عن المذهب الإباضي إذا لقي علماء المسلمين (علماء الآفاق، حسب تعبيره)، وأنه كان ينصح السلطان بما يراه في صالح المسلمين عامة، ويعمل على توحيد كلمتهم في وجه الاستعمار والتفرق والجمود. وكانت تجربته السياسية مع أمير الشرقية والعمل بالشورى والعدل والعلم قد ساعدته على الجهر بالحق، وكانت هناك ظروف أخرى قد ساعدته على النفوذ أيضاً وهي علمه الغزير وعاهته وتلاميذه وسمعته، إذ لا يكاد يشك أحد في إخلاصه وتكريسه حياته لخدمة العلم والأمة. وقد قيل عنه إنه كان خطيباً مفوهاً، وإنه كان يحزن لما يصيب الأمة الإسلامية من نكبات، وأنه كان مضيافاً كثير الزيارة لمعارفه وتلاميذه، وأنه كان «الركن الأعظم في إعادة الإمامة إلى عمان»[3].

(1) تحفة الأعيان، مصدر سابق، ص 313.
(2) نفس المصدر، ص 314.
(3) أبو إسحاق، مقدمة مشارق أنوار العقول، مصدر سابق، ص 20.

وهذه المواقف نفسها نكاد نجدها بحذافيرها عند الشيخ أطفيش. فهو أيضاً كان حريصاً على مصلحة الأمة، وكان مدافعاً قوياً على المذهب الأباضي، وكانت تآليفه تصل إلى الآفاق، وكان تلاميذه منتشرين في أفريقيا وآسيا، وكان يواجه «الحكام» الفرنسيين بمطالبه من أجل المواطنين وحقهم في العدالة والمساواة ورفع الضيم، وكان عى صلة بممثليهم من أجل تخفيف غلوائهم عن المسلمين. وإذا استجاب لطلبهم في أمر من الأمور فإنه يبرره بأنه كان في صالح الإسلام. وكان يقول أمامهم إن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه حتى عند أخذ صورة أو لقاء وفد. ولا شك أن هذه أمور رمزية ولكنها ذات دلالة خاصة مع المستعمرين. ومن جهة أخرى كان أطفيش مهتماً بشؤون الدولة العثمانية وله بعض المراسلات مع سلطانها عبد الحميد الثاني، وقد وقف ضد الاحتلال الايطالي لليبيا العثمانية، ودعا إلى جمع التبرعات لصالح المجاهدين الليبيين، وهو عمل سمحت به في الواقع السلطات الفرنسية من جهة، ويساعد المسلمين الإباضيين في ليبيا من جهة أخرى. ونعتقد أنه لقي بعض علماء عمان في حجته وأنه تراسل مع بعضهم على الأقل، وكان يدفع بكتبه، كما عرفنا، لتطبع في عمان وزنجبار، وكانت له علاقة خاصة مع الشيخ سعيد الصقري ومع الشيخ السالمي نفسه، وقد عاش كل منهما فترة التحول التي مرت بها الأمة الإسلامية: من الاستعمار إلى النزوع إلى الاستقلال والحرية.

وفي الخاتمة تجدر الإشارة إلى أن البعد المكاني بين القطبين وضعف أحوال المسلمين وسيطرة الأجانب عليهم لم يمنعهما من التواصل والاهتمام المشترك بمصير الأمة الإسلامية. ومن أجل ذلك دعا كل منهما إلى الإصلاح والنهوض والتسامح المذهبي والتغلب على الخلافات وأسباب الافتراق وتشجيع الحكام المسلمين على الحكم بالعدل والشورى والالتزام بتعاليم الإسلام.

قسم التاريخ/ جامعة آل البيت (الأردن)

2002/2/5م

المراجـــع:

1 ـ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، الدعاية إلى سبيل المؤمنين، المكتبة السلفية، القاهرة، 1923م.

2 ـ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

3 ـ بيير كوبرلي، الرسالة الشافية، في مجلة إيبلا Ibla (تونس)، 1972م.

4 ـ سالم بن محمد الغيلاني (مشرف)، قراءات في فكر السالمي (حصاد ندوة)، ط 1، إعداد: محمد بن علي الصليبي، وزارة التراث القومي، عمان، 1413هـ/ 1993 م.

5 ـ عبد الله السالمي، مشارق أنوار العقول، تصحيح وتعليق أحمد بن حمد الخليلي، دار الجيل، بيروت، 1989م.

6 ـ تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان، ط 3، (بالأوفست)، المطابع الذهبية، عمان، 1993م.

7 ـ فاروق عمر فوزي، دراسات في تاريخ عمان، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، 2000م.

8 ـ محمد الزبير (مشرف)، دليل أعلام عمان، مؤسسة السلطان قابوس لأسماء العرب، جامعة السلطان قابوس، مكتبة لبنان، بيروت، 1991م.

9 ـ محمد ناصر، الشيخ إبراهيم أطفيش في جهاده الإسلامي، جمعية التراث، القرارة (الجزائر)، 1991م.

سليمان الباروني
أضواء وملاحظات

حياته وأسرته:

أصله من قبيلة البارونيين حيث الشرف التليد والمذهب الأباضي وحيث تلتقي سواحل الجزيرة العربية بالبحر العربي وخليج هرمز وتتجاوب الحضارات العربية والفارسية والهندية عبر العصور. ولد الباروني في الجبل ـ جبل نفوسة ـ الشهير بليبيا سنة 1287هـ (1870م)، وقد حافظت عائلته التي انتقلت إلى هذا الموقع على تقاليدها العربية ومذهبها، وكان والده من الأعيان ومن الأدباء أيضاً. فلا غرابة أن يوجه ابنه سليمان إلى حواضر العلم المعروفة عندئذ، وهي تونس ومصر والجزائر (بني ميزاب). وبعد أن ملأ وطابه من العلم الموجود ظل يزكيه بالرحلات والمطالعات ونحوها. وقد عاش حياة قلقة أول هذا القرن شملت التنقل بين البلدان التي ذكرناها وإنشاء بعض المشاريع وبداية السياسة.

وقد تنقل الباروني في العالم العربي والإسلامي من أقصاه إلى أقصاه من صحراء الجزائر إلى بلاد الهند، وتنقل بين إسطانبول وأوروبا، وعمل في مصر وبغداد ومسقط. وحارب في طرابلس، وعبر البحر الأدرياتيكي والأبيض المتوسط في غواصة ألمانية إلى ليبيا ليتولى قيادة المقاومة ضد الإيطاليين. ولقد رأى النور في جبال نفوسة ثم انطفأ ذلك النور في بومباي الهندية. إنها حياة خصبة مليئة بالمغامرات والآمال الكبير في السياسة والأدب والدين.

في عريضة شكوى منه إلى السلطان عبد الحميد الثاني قال إن الهيئة الحاكمة في طرابلس قد ألقت عليه القبض سنة 1316هـ. وكان عندئذ قادماً إلى طرابلس من مصر عن طريق أوروبا والجزائر وتونس. ولعل ذلك كان على أثر رجوعه من التتلمذ على

(*) منشور في مجلة (الثقافة) عدد 110 ـ 111، سبتمبر/ديسمبر، 1995. وقد كتب ونشر أثناء فترة بحث قضيناها في الولايات المتحدة الأمريكية.

الشيخ أطفيش في بني ميزاب. وقد اتهمته (الهيئة الحاكمة) بالتمذهب والتحضير للتمرد، باسم سكان الجبل الغربي. وقد عزز الباروني شكواه بقصيدة طويلة في مدح السلطان عبد الحميد. وحين صدر العفو عنه قال إن الخبر قد طيره برقياً إلى أقصى صحراء الجزائر (لعله يقصد وادي ميزاب)، وحصل بذلك استحسان بعد سخط[1].

ورغم أنه عاش فترة بمصر وأنشأ المطبعة المعروفة باسمه (البارونية) وأصدر جريدة (الأسد الإسلامي)، ومارس التجارة، كما سنرى، فإنه رجع إلى طرابلس وتولى منها وظيفة النائب عنها في البرلمان العثماني. وبهذه الصفة كان من قادة الحرب ضد الايطاليين 1911 ـ 1913، وهي المعروفة بفترة الحرب الأولى لتحرير ليبيا، وكان في هذه الحرب إلى جانب أنور باشا والأمير علي بن الأمير عبد القادر، وشكيب أرسلان ومصطفى كمال (أتاتورك مستقبلاً) وغيرهم. وبعد اللجوء إلى تونس ثم إلى إسطانبول رجع 1916 متخفياً إلى طرابلس والياً عليها ولقيادة النضال بتأييد من ألمانيا والدولة العثمانية، على أثر دخول إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء. وكوّن الباروني مع زملائه أعيان طرابلس، هيئة قيادية، وهي التي تسمت سنة 1918 ـ 1919 بمجلس الجمهورية الطرابلسية، الذي كان رئيسه محمد سوف المحمودي، ونائبه يحيى الباروني (أخو سليمان). وكان سليمان الباروني أحد أعضاء المجلس، ولا ندري هل هذا الوضع في المجلس كان إقصاءً له أو تواضعاً منه.

وبعد خيبة الآمال باستيلاء ايطاليا على ليبيا، وانتصار الحلفاء الذين منهم ايطاليا، وتخليها عن اتفاقها مع الليبيين الذين وقعت معهم ميثاقاً يسمى (القانون الأساسي) ضاقت الأرض بالباروني، فلم تقبله فرنسا في تونس أو في الجزائر ولا بريطانيا في مصر، ولا الدولة التركية الجديدة[2] فاستقر في الحجاز فترة ثم أقام في بغداد حيث الملك فيصل وابنه غازي، قد رحبا به، وبابنه، وحيث وجد الباروني الرعاية من أعيان العراق إلى أن حصل على الجنسية (التابعية)، ثم استقر في مسقط حيث كان السلطان سعيد صديقاً له ومن العارفين بفضله.

وللباروني أسرة متنوعة، فله أخوان هما يحيى وأحمد، وله زوجتان وولدان

(1) زعيمة الباروني (صفحات خالدة)، مصر 19، ص 58، 65، 87.

(2) رغم عواطفه نحو الدولة العثمانية، فإن دولة أتاتورك منعته من دخولها، لأنه انتقد سياستها الجديدة. ومن جهة أخرى كان الحجاز ونجد في نزاع بين آل سعود وآل الرشيد. كما وقعت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.

وبنتان، كما له حفدة. وقد درس أخوه يحيى في الجزائر أيضاً ـ ميزاب ـ وكذلك في تونس ومصر. وتولى بعد ذلك نيابة رئيس مجلس شورى الجمهورية الطرابلسية حين أنشى ذلك المجلس سنة 1918 ـ 1919 تحدياً للاستعمار الايطالي. وتوفي يحيى سنة 1346 هـ ورثاه أخوه سليمان بقصيدة مؤثرة. أمّا أخوه أحمد الباروني فقد درس في القاهرة ثم تولى القضاء في نالوت وفي غيرها بليبيا، ثم أحيل على التقاعد سنة 1954.

قلنا إنه كان لسليمان الباروني ولدان وهما سعيد وإبراهيم. التحق الأول بالمدرسة الحربية باسطانبول عندما كان والده نائباً فيها عن طرابلس. وأصبح سعيد من الضباط في الجيش العثماني. ولا ندري مصيره. أمّا إبراهيم فقد كان ملازماً لأبيه، انتقل معه في كل مكان حل به تقريباً. فعاش معه في تونس أيام لجأ إليها خلال الحرب العالمية الأولى ومطاردة الإيطاليين للطرابلسيين. ولا ندري إن كان قد درس بتونس أثناء اللجوء. ثم انتقل مع والده أيضاً إلى إسطانبول. وهناك درس بعض الوقت، ولكن الأحوال المضطربة وعودة والده إلى طرابلس (1916) جعلته ينتقل إلى مصر للدراسة في مدرسة رأس التين بالاسكندرية إلى أن حصل على البكالوريا. ثم رجع إلى طرابلس ليبقى مع العائلة حين أصبح أبوه مطارداً أيضاً. وبعد أن استقر والده في مسقط ذهب إليه وعاش معه، ولكن إبراهيم أصيب بمرض الملاريا فكان ضعيف البنية، وأخذه والده إلى بغداد للعلاج. وهناك التحق بمدرسة الحقوق على نفقة العراق. ولكنه لم يحصل على الليسانس. فوظفه الملك غازي كاتباً في البلاط. ونحن نعلم أنه انتقل إلى مسقط من جديد والتحق بالمدرسة السلطانية للتعليم بها، ولعل ذلك كان بعد مقتل الملك غازي بالعراق. وبعد وفاة أبيه (1940) رجع إبراهيم الباروني إلى طرابلس. وكان إبراهيم من الشعراء والكتاب أيضاً. وقد نشر في جرائد المشرق وكذلك في جرائد الشيخ أبي اليقظان في الجزائر، مثل (الأمة). وكان إبراهيم متأثراً بالحركة العربية[1].

ومن أبرز بنات سليمان الباروني، زعيمة: التي يرجع إليها الفضل في التعريف بجهاد والدها حين نشرت (صفحات خالدة) عن حياته. وكانت قد عاشت في مصر وفي ليبيا. وهي من زعيمات النساء العربيات المسلمات في العصر الحديث.

(1) أبو اليقظان (سليمان الباروني)، جزآن، المطبعة العربية، الجزائر، 19، 2/227 وما بعدها. وعن ترجمة الباروني انظر أيضاً زكي محمد مجاهد ( )1/143. وجبران محمد مسعود (سليمان الباروني وآثاره)، تونس وطرابلس، الدار العربية للكتاب 1991. لم نطلع على هذا الكتاب.

الباروني والجزائر:

عندما يذكر الباروني والجزائر يتبادر وادي ميزاب إلى الذهن، وذلك لعدة عوامل منها: تعامه على الشيخ محمد بن يوسف أطفيش وتمذهبه بالمذهب الأباضي. وهذان العاملان جعلا الباروني يواصل اهتمامه بكل ما يرجعه إلى وادي ميزاب، أخباره ورجاله وقضاياه ومستقبله.

تتلمذ الباروني على الشيخ أطفيش حوالي ثلاث سنوات، أقامها في بني يسقن. كان ذلك سنوات 1896 ـ 1899. وقد أتاح له ذلك الاتصال المباشر بأهل ميزاب والتعرف على حياتهم في مختلف القرى. كما زار مراكزهم في المدن الجزائرية الأخرى حيث يمارسون التجارة وأنماطاً أخرى من الحياة الاقتصادية والأدبية. وهذا الارتباط بأهل ميزاب جعله يصبح كأنه واحد منهم، كما يقول الشيخ أبو اليقظان، «سلالة ونسباً ونشأة وخلقاً وعاطفة وهوى» (ص 207، ج 2).

كان الباروني كثير الوفاء لشيخه أطفيش. وقد أدى إليه زيارة أخيرة سنة 1325(1907م) تقديراً له، وكان الشيخ أطفيش عندئذ قد طعن في السن. وقد خصه الباروني بالقصائد والتنويه بفضله عليه وعلى وادي ميزاب والمذهب الأباضي. وفي هذا الصدد قام الباروني بنشر بعض مؤلفات شيخه أطفيش في مصر، مثل كتاب (وفاء الضمانة). وأثناء الزيارة المذكورة التقى به الشيخ أبو اليقظان في بني يسقن. ثم اجتمع به بعد ذلك عدة مرات، مثلاً في تونس سنة 1913 حين كان أبو اليقظان طالباً في الزيتونة. وقد أهدى الباروني عندئذ أثاثاً مدرسياً إلى طلبة البعثة الميزابية في تونس. وكان نضال الباروني ضد الايطاليين في ليبيا قد سبقه إلى تونس وغيرها.

أمّا بالنسبة لقضايا ميزاب عامة فقد تبنى الباروني منها كل ما يراه صالحاً وضرورياً لبقاء المذهب والتاريخ والخصوصية. دعا إلى بقاء «الميزة والشخصية البارزة لميزاب والميزابيين» وعدم تشتت الجهود في شؤون «السياسة والوطن العمومي» وذلك في نظره لا ينافي اتحاد أبناء القطر كله» (نفسه ص 210). وهي معادلة صعبة، فهو من جهة يرى بقاء بني ميزاب على مذهبهم وخصوصيتهم، ومن جهة أخرى يرى العمل من أجل مصلحة الوطن الواحد. وفي هذا الصدد ساند إعفاء بني ميزاب من الخدمة العسكرية الإلزامية التي كان الفرنسيون قد فرضوها على الجزائريين منذ 1912. وكان بنو ميزاب يحتجون على ذلك باتفاق الحماية الذي وقعه الفرنسيون معهم سنة 1853 ثم خرقه

الحاكم العام لويس تبرمان، باسم حكومته، سنة 1882 باحتلال ميزاب.

كان الباروني يتابع أحداث بني ميزاب أينما كانت، والفتن التي كانت تحدث من الجهلة بإيعاز من أصحاب الأغراض الخفية، كان يجد لها التفسير وينصح بالتغلب عليها وتجاوزها. فقد حدثت فتنة الاذان بميزاب، على أثر تأسيس جمعية العلماء في العاصمة (1931) واشتراك علماء ميزاب فيها. ولذلك رأى الباروني أن الفتنة من دسائس المغرضين الذين كانوا يعملون على إحياء الخلاف المذهبي، كما كانوا يعملون على نشر الخلاف العنصري بين السكان. ونظر الباروني إلى فتنة 1936 بقسنطينة بنفس النظرة حين عملت السلطان الفرنسية. ولعلها كانت مدعومة من التجار اليهود، على مقاطعة بني ميزاب تجارياً[1].

واهتم الباروني بمدن وحضارة الرستميين القديمة، فكان يعتبر تيهرت «عاصمة مجدنا القديم» وهي التي كانت عاصمة العلم والسياسة والدين للدولة الأباضية الأولى في المغرب العربي. كما اعتبر وارجلان (ورقلة) «بلد السلف ومدفن رجاله» ودعا إلى إحياء المذهب الأباضي هناك، وقد كان سائداً بها قديماً، وإلى تعمير الجامع الأعظم التاريخي في وارجلان. وكان أحد شيوخ العلم الميزابيين، وهو الحاج عمر العنق، قد انتصب للتدريس هناك. وكان الباروني قد طبع في مصر الجزء الثاني من كتاب (الأزهار الرياضية) وهو خاص بأخبار مدينة تيهرت عاصمة الرستميين، وكان هذا الكتاب قد جلب أيضاً إلى الجزائر وقسنطينة وميزاب للانتفاع به.

أمّا تشجيع الباروني لنهضة ميزاب العلمية ومراسلاته مع أدباء وعلماء المنطقة فهي أكثر من أن تذكر هنا. كانت النهضة العلمية قد انطلقت على يد الشيخ أطفيش في بني يسقن وغيرها، وفي البعثات العلمية إلى تونس والمشرق. وكان هو يساهم في التعريف بها والتشجيع عليها، وذلك بطبع الكتب الخاصة بالمذهب، ومؤلفات شيخه أطفيش، وتشجيع المطابع والمجلات والجرائد، وتفادي الخلافات المضرة. وقد أصدر حوالي سنة 1907 في مصر جريدته (الأسد الإسلامي) فكانت معرضاً لأخبار بني ميزاب أيضاً وتاريخ المذهب الأباضي ورجالاته. والباروني هو الذي شجع أبا اليقظان على إنشاء

(1) وقعت الفتنة 5 غشت 1936 في قسنطينة، سنتين بعد الأحداث التي عرفتها قسنطينة بين المسلمين واليهود وقد كتب الباروني إلى صديقه إبراهيم امتياز متألماً مما حدث بسبب مقاطعة اليهود. ودعا إلى أن يربط التجار الميزابيون تجارتهم مباشرة مع الديارا لفرنسية دون المرور بتجار اليهود في الجزائر. وحذر من أن «مكائد اليهود لا تحصى ولا يستهان بها».

المطبعة العربية في الجزائر وعلى إنشاء الصحف التي كانت السلطات الفرنسية تحجزها. ولعل الباروني كان وراء إنشاء مجلة (المنهاج) بالقاهرة أيضاً مع الشيخ إبراهيم أطفيش.

* * *

أمّا الجزائر عامة فقد زارها الباروني عدة مرات وتغنى بطبيعتها في شعره، وتعرّف على بعض رجالها، وله رأي في السياسة الفرنسية بها. كان يرى أن أهل الجزائر يتمتعون بغيرة دينية عميقة، وبالصرامة في الحق والتشدد فيه، ولكن الاستعمار قد رماهم في غياهب الجهل. ولذلك ندر فيهم العلماء والمثقفون، على خلاف مصر وتونس. ومع ذلك رأى بعد زيارته قبل الأخيرة للجزائر 1907(1325هـ) أن أهلها أخذوا يستيقظون وينهضون على أصداء الحركة العلمية في تونس.

ورأى الباروني أن تخفيف قبضة فرنسا على حرية التعبير أدّى إلى إنشاء الجزائريين للصحف الخاصة بهم. وهي الصحف الكفيلة في نظره ببث الوعي والنهوض للمستقبل. وهو بدون شك يصف عهد شارل جونار في الجزائر 1903ـ1913[1].

بالإضافة إلى الدراسة على الشيخ أطفيش، زار الباروني الجزائر عدة مرات وتجوّل في أنحائها. كانت الزيارات منذ 1896/ 1314 هـ. وقد أتاح له ذلك التعرف على بعض العلماء، ومتابعة الأخبار السياسية والعلمية بها، والردّ على بعضهم. من ذلك أنه رأى بعض الكتاب الجزائريين ينتسبون إلى نواحيهم أو قبائلهم مثل الزواوي والصنهاجي. ورأى أنه لا شعوبية في ذلك. وإنما الشعوبية في نظره، أن ينتسب الكاتب إلى العرق والسلالة. وكانت (البصائر) قد نشرت شيئاً من ذلك على لسان أحد الكتاب [2].

كان الباروني قد رحب بإنشاء جمعية العلماء، وكان ينعتها بالجليلة وينعت رئيسها عبد الحميد بن باديس بالمجاهد، والبطل الجليل. كما عبّر عن اغتباطه بعقد المؤتمر الإسلامي سنة 1936، وسرّ بمشاركة علماء ميزاب في الجمعية واعتبرها دليلاً على روح الوئام والاتحاد. وكان مشتركاً في جريدة (البصائر) التي كان يسميها «المجاهدة الجريئة»،

أمّا العلماء والأعيان الجزائريون الذين تراسل معهم أو لقيهم فهم بعدد غير قليل. فبالإضافة إلى شيخه أطفيش وأصدقائه أمثال أبي اليقظان وإبراهيم امتياز والحاج عمر

(1) زعيمة الباروني (صفحات)، ص 33.
(2) ينتسب (الباروني) نفسه إلى قبيلته، وربما كان ذلك هو السبب في أنه لم ير ذلك «شعوبية».

العنق وغيرهم، هناك حمدان الونيسي وعباس بن حمانة[1]، والأمير علي بن الأمير عبد القادر، وغيرهم. كان الشيخ حمدان الونيسي قد قال بيتين بعثهما إلى الباروني بمناسبة صدور جريدته (الأسد الإسلامي)، سنة 1325، وكانت فيها مقالة للباروني بعنوان (الجامعة الإسلامية)، وهما:

أذا (الأسد الإسلامي) لله دركم — بجامعة الإسلام فاسط بتبيان
وفاخر بعقل في المصالح وادّخر — أجوراً بها في الحشر تأبى لحسبان

وقد أجابه الباروني بقطعة على نفس الوزن والقافية. ووصفه فيها بالعلامة المدرس بالجامع الكبير بقسنطينة... ومنها:

قريظ همام طافح اليمّ حمدان — سمي ابن قيس بالسلامة هنّاني

إلى أن يقول فيها:

فأنت أخ والناس في الدين إخوة — وهل مذهب الانصاف هجري لاخواني
علمنا من الأيام سوء انقسامنا — فبالاتحاد الفوز يا عين إنساني
أسافر كيما ألتقى بآجلّة — لهم من سموّ الفكر حظّ (كحمدان)[2]

وفي سنة 1330 كان الباروني في تبسة، حسب ما فهمنا من بعض النصوص. وهناك التقى بالسيد عباس بن حمانة المعروف بنشاطه الإسلامي وفكره المتنور. ويفهم من النص أن عباس بن حمانة هو الذي زار الباروني. ولا ندري ما الهدف، فقد جاء الباروني على ذكر أحمد بن جبارة، وعباس بن حمانة، والحاج عمر العنق، والسيد مصطفى الضابط المتقاعد، ثم قال «زارونا في تبسة». ويبدو أن هناك مصالح تجارية وعسكرية كانت تجري أثناء حرب طرابلس، إذ وصف أحمد بن جبارة بأن له عمليات تجارية في الدقيق والسلاح والإبل. وعندما ذكر الضابط مصطفى (؟) ذكرت معه البضائع، كما ذكرت الحوالة المالية مع اسم السيد الحاج عمر العنق[3].

(1) عن عباس بن حمانة أنظر مالك بن نبي (مذكرات شاهد القرن) ط. دمشق 1986. وقد نوه به واعتبره من رواد الوطنية وإحياء العربية.

(2) من صفحات خالدة، ص 91. مقالة (الجامعة الإسلامية) منقولة أيضاً من الجريدة إلى هذا الكتاب. وقد فهمنا أن بداية بيت حمدان أ(ذا) تقرأ بفتح الألف على أساس المنادي. وفي كلام الباروني ما يفهم على أنه لقي الشيخ حمدان بقسنطينة، ولكن العبارة غير صريحة. والباروني لم يذكر لفظ (الونيسي) واكتفى بلفظ حمدان وكلمة (قريظ) وجدناها كذلك.

(3) صفحات، ص 360، ويقول محمد علي دبوز في (نهضة الجزائر) 2/274 أن عمر العنق كانت له =

وكانت بين الباروني والأمير علي بن الأمير عبد القادر معرفة وهدف واحد، وهو محاربة الإيطاليين ونصرة العثمانيين والقضية الإسلامية. ولكن يبدو أنه كانت بينهما أيضاً منافسة ومصالح مختلفة. وكلاهما حاولت السلطات الفرنسية جلبه فزارا الجزائر في أوقات متقاربة قبل ذلك. ولكن الباروني رأى من المصلحة مسالمة فرنسا عندئذ (أثناء حرب طرابلس)، أمّا الأمير علي فكان ينتقد فرنسا على احتلال الجزائر وتونس. وقد رد عليه الباروني ذات مرة بقوله: «يا أمير، إن فرنسا حبيبتنا الآن»، وذلك عندما ألقى الأمير علي خطاباً سنة 1912 وانتقد فيه فرنسا[1].

وفي حدود 1334 جرت أيضاً مراسلات بشأن الشيخ الهاشمي بن إبراهيم شيخ الطريقة القادرية بوادي سوف. ويبدو أن الباروني كان ينتظر منه تأييداً مادياً ومعنوياً. أمّا التأييد المعنوي فهو قراءة الفاتحة والبركة الصوفية، وأمّا التأييد المادي فلم تفصح عنه المراسلات، وهو ربما الأهم في تلك الظروف. وتشير المراسلات إلى أن الشيخ الهاشمي كان محباً جداً للدولة العثمانية. وهذا ما يؤكد اتهام الفرنسيين للطرق الصوفية (أو بعضها على الأقل) بأنها كانت تناصر حركة الجامعة الإسلامية. وجاء في إحدى المراسلات من الباروني إلى السيد سالم بن أحمد «قد وصلني جوابك من غدامس...» وها هو جواب إلى «حضرة الشيخ الهاشمي في وادي سوف، بلغه إليه ليرسل إلينا جوابه سريعاً، واطلب لنا منه الفاتحة». فما أهمية الجواب السريع المنتظر من الشيخ الهاشمي الذي وصف في مكان آخر بأنه «صاحب النفوذ في تلك الجهات»[2]. والمعروف أن إخوة الشيخ الهاشمي كانوا مقدمين للطريقة القادرية في شرق الجزائر وتونس وليبيا أيضاً. ولعل عمليات اتصال كانت تتم عن طريقهم لمساعدة المجاهدين في ليبيا عندئذ.

«الباروني في صحراء الجزائر» كان هذا عنواناً لمقالة كتبتها جريدة (الفاروق) الجزائرية التي كان يحررها عمر بن قدور. وقد تحدثت المقالة عن انتقال البارونبي من العاصمة (أبريل 1914) إلى بني يزقن عبر مراحل عديدة، منوهة بمواقفه، وحسن الاستقبال الذي حظى به، وتسهيل السلطات الفرنسية انتقاله وتسريح القضاة والعلماء

= علاقة وطيدة مع الباروني، رافقه من تونس إلى بني يزقن في أبريل 1914(1332)، كما زاره في مرسيليا سنة 1924 وبقي معه أياماً.

(1) صفحات خالدة، ص 380. عن الأمير علي أيضاً، انظر ص 188. وكذلك (كتاب طيب الذكر)، دمشق، 1919.

(2) نفس المصدر، ص 133، 184.

لاستقباله في ميزاب، وروت ما خطب وخوطب به، وقالت إن له نسباً مع بعض القبائل الجزائرية. ركب السيارة من العاصمة، ومر بالمدية وقصر البخاري والجلفة والأغواط، ثم إلى بريان وغرداية. وفي هذه المدينة زار مقر الحاكم الفرنسي، واستقبله العسكر والإداريون والعلماء. وفي بني يسقن زار قبر شيخه محمد أطفيش (ت. 1914) وكان يرافقه من الأعيان والتجار الجزائريين: عبد الله بن الحاج صالح، ويحيى بن ماسم (من أعيان جلالة، كما قالت الجريدة)، والحاج عمر بن الحاج إبراهيم (العنق؟) من تجار تبسة، وزار أيضاً بونورة والعطف ومليكة. وكان قد نزل في دار بلدية غرداية، وبلدية بني يسقن. ووجد استقبالات كبيرة جعلته كأنه، حسب الجريدة، أمام طرابلس أو جبال الغرب (نفوسة). وقد أذنت فرنسا للقضاة والعلماء بالتغيب عن العمل لاستقباله، وألقيت أمامه الخطب والقصائد. وفي جوابه عن هذا الاستقبال شكر الباروني المستقبلين بحرارة كما شكر الدولة الفرنسية القائمة على «دعائم الحرية»، وقال إنها تحب كل ما يرضي رعاياها المسلمين وتشاركهم أفراحهم. ودعا الجزائريين إلى شكر هذه النعمة بالمحافظة على ما فيه رضى حكومتهم، والتباعد عن كل ما يغضبها. ولا شك أن الباروني كان لا يخفى عليه أن الفرنسيين كانوا يفعلون ذلك معه لأغراض استعمارية ودعائية[1].

أثناء الاستقبال الشعبي لبس بعضهم الطربوش العثماني. وتوجهت المشاعر نحو الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية. وكان السلطان عبد الحميد قد أطيح به عندئذ وحلت محله لجنة الاتحاد والترقي ذات التوجه الغربي الماسوني غير المرئي. والغريب أن (الفاروق) التي لم يكن يخفى على صاحبها ما حدث في المشرق، امتدحت الباروني بأنه أقام بالجزائر سنوات فراراً من حكم السلطان عبد الحميد. وأنه أثناء هذا «الفرار» قد تجوّل في الجزائر من حدود المغرب الأقصى إلى الصحراء، وعرف الناس وعرفوه[2]. ومن الممكن أن نفهم من هذا أن الباروني لم يأت الجزائر تلميذاً فقط ولا زائراً لأستاذه فقط، ولكنه جاء «لاجئاً» لدى السلطات الفرنسية التي تحتل الجزائر. وربما كان التتلمذ وزيارة الشيخ أطفيش غطاء فقط. ولكن الذي نعرفه أن الباروني ظل وفياً إلى الدولة العثمانية حتى بعد أن «باعت» طرابلس، وحتى أن بدّل مصطفى أتاتورك وغيّر، وبعد أن

(1) من المفيد أن يقارن المرء بين موقف الشيخ محمد عبده أثناء زيارته للجزائر سنة 1903 وزيارة الباروني لها، سيما الأخيرة. وما صرّح به كلاهما للجزائريين.

(2) المقالة في الفاروق، وهي منقولة في (صفحات خالدة)، ص 453، ولكن بدون تاريخ. والمعروف أن الفاروق ظهرت سنة 1914، وأن زيارة الباروني لبني يسقن، كانت في أبريل، 1914.

منعته السلطات العثمانية ـ التركية من دخول أراضيها.

كان ثمن التسهيلات التي وفرتها له السلطات الفرنسية في الجزائر هو ذلك الشكر الفائض لدولة فرنسا القائمة على «دعائم الحرية» كما قال، ووصفها بحب الخير للمحكومين الجزائريين. وكذلك كان الثمن هو دعوة الجزائريين إلى تفادي ما يغضب فرنسا كالثورة ومعاداة مخططاتها. وهو ثمن كبير دفعه الباروني أثناء هذه الزيارة الأخيرة للجزائر. ونقول الأخيرة لأن الفرنسيين لم يسمحوا له بعد ذلك بالرجوع إليها أو إلى تونس، رغم محاولاته وطلباته[1]، وكان عليه، بعد أن انتهت زيارته سنة 1914 أن يسرع الخطى إلى إسطانبول حيث أصبح عضواً في البرلمان (أو مجلس الأعيان)، فاعتذر لمستقبليه في ميزاب ورجع من حيث أتى.

في إحدى زياراته السابقة للجزائر، تجوّل الباروني في عدة مدن بها وكان يسجل انطباعه شعراً ونثراً. ومن ذلك زيارته للقليعة، والبليدة وجبال زكار، وقالمة وتلمسان. ففي القليعة تمتع بالطبيعة وجمال البحر والجبل وتناول الغداء عند أحد الأعيان، وهو لم يذكره بالاسم ولكن قال عنه إنه أحد أعضاء مجلس ولاية الجزائر. ولا شك أن السلطات الفرنسية هي التي كانت وراء تنظيم هذه الزيارة. ولعل السيد المذكور أحد أفراد عائلة زاوية ابن علي مبارك، الذين أصبحوا يعرفون بابن علال. وأنشد عن (قصر) القليعة:

بيـــن الجبـــال وبيـــن حـــو ض البحـــر أبهـــى منظـــر
طـــود بـــه قصـــر القليـ ـعـــة ذو المنـــاخ الأخضـــر

وأثناء مروره بمتيجة والبليدة وجبال زكار إلى تلمسان قال الباروني أشعاراً رقيقة استوحاها من الطبيعة الجميلة والمدن والناس والجبال والشمس، على نحو أندلسي. وبعد وصوله إلى الصحراء ـ لعله ذهب من تلمسان إلى تيهرت القديمة ثم إلى ميزاب ـ رجع إلى شمال الجزائر عن طريق قسنطينة (؟) وقالمة. وفي قالمة استقبله أعيانها وحكموا بذهابه إلى حماماتها المعدنية ـ حمام المسخوطين ـ. وقد سجل الباروني إعجابه بطبيعة قالمة وحماماتها فقال: «منابع كبيرة كثيرة، تحيط بها جبال شاهقة، ذات غابات شجر لها منظر عجيب يقصده الأفرنج من أوروبا». وكان إذ ذاك الثلج جامداً على رؤوس تلك الجبال» ثم وصف الحمامات ونظامها ونظافتها، واجتمعوا حولها للطعام

(1) انظر فقرة أخرى عن زيارته لتونس وطرد السلطات الفرنسية له، بعد الحرب العالمية الأولى.

وشرب الشاي، بينما منابع الماء والبخار قد ملأ الفضاء صعوداً. ثم سارت بهم العربة ليلاً بين الجبال في طرق منتظمة، وتذكر أثناء ذلك جبل نفوسة، حيث مسقط رأسه ومنبت أجداده. فقال شعراً قارن فيه بين جبال قالمة وجبال نفوسة:

تدفق ماء معدني من الصخر ... يذكرني مما تخلد في الفكر
سبحنا وروّحنا النفوس سويعة ... وعدنا وجنح الليل منسدل الستر
تحف بنا تلك الجبال يزينها ... من الثلج هامات كمنفلق الفجر
وطرق كقضبان اللجين ترصعت ... بها الروض من صنف الزياتين والسدر[1]

الباروني والعالم الإسلامي:

كان الباروني يعتبر من أبناء طرابلس بالمفهوم السياسي الشائع في بداية هذا القرن. وهو كما ذكرنا من جبل نفوسة. وكان من أبناء الجبل المغاوير الذين يعتزون بأصولهم ومذهبهم، وأسرته ترجع إلى قبيلة البارونيين (عمان). وكان والده أديباً وشاعراً، وكذلك كان ابنه سليمان. وفي آخر العهد العثماني بطرابلس (ليبيا) كان الباروني متعلقاً بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحيمد. واشتهر أمره بين أعيان البلاد واختير لتمثيل بلاده في برلمان هذه الدولة. ولعب أثناء الحرب الليبية الإيطالية دوراً بارزاً، باعتباره من أعيان طرابلس ومن زعماء الدولة العثمانية أيضاً.

وفي الوقت الذي كان فيه الباروني ينافح عن طرابلس كان هناك زعماء آخرون ينافحون عن بني غازي (برقة)، وعلى رأسهم الشيخ عمر المختار وأحمد الشريف من العائلة السنوسية. وكان الشيخ الأخير معيناً رسمياً من قبل الخليفة العثماني لتمثيله على مستوى ليبيا. ولذلك كانت العلاقات بين الرجلين غير حميمة. وقد تعرض الباروني في إحدى المرات إلى الاعتقال على يد أنصار السنوسي ثم أطلق سراحه. وكان الباروي ينظر إلى أقليم بني غازي على أنه خارج عن نطاقه.

وأثناء الحرب العالمية الأولى عيّن الباروني (1916) والياً على طرابلس باسم الدولة العثمانية. وكان عليه أن يحارب الإيطاليين وأن ينسق الجهود مع الألمان ولجنة الاتحاد والترقي. وقد دخل طرابلس سراً في غواصة ألمانية بعد أن مرّ بطريق النمسا. ودافع عن طرابلس بالتنسيق مع زعماء آخرين رغم المؤامرات الإيطالية لإحداث الفرقة.

(1) (صفحات خالدة)، مرجع سابق، ص 101،98. تاريخ هذه الرحلة غير معروف الآن، ولعله سنة 1314 هـ.

وكان من أبرز أعوانه وزملائه محمد سوف المحمودي، وهو ابن الزعيم غومة المحمودي الذي هاجر إلى سوف وولد له ولده هناك فسماه باسم (سوف). وقد وضع هؤلاء الزعماء قانوناً أساسياً لحكم طرابلس حكماً ذاتياً تحت الحماية الإيطالية وتخلوا عن مبدأ تقرير المصير الذي جاء في مبادىء ويلسون، ورضوا بانتهاء حالة الحرب مع إيطاليا. ولكن هذه خانت العهد وألغت العمل بالقانون الأساسي المتفق عليه سنة 1919. وأصبح الباروني لاجئاً في بغداد ثم عمان.

كتب ذات مرة من بغداد رداً على دعاة التفاهم مع إيطاليا الفاشية عندئذ، وكان يقصد الأمير شكيب أرسلان غالباً، وكان ينظر إلى ذلك الموقف على أنه تضحية بطرابلس: «كونوا كما تريدون، وإنما لا تدخلوا طرابلس في نظرياتكم». وقد اعتبر الباروني بني غازي غير بلاده، بل قال إن بلاده هي طرابلس» التي يحدها شرقاً بني غازي وغرباً تونس. أمّا قطر بني غازي فلا حق لي في التعرض لشؤونه لأن له رجالاً وأبطالاً حاربوا دونه ببسالة... إلى أن استشهد الشيخ عمر المختار... «وفي مقدمتهم أشبال العائلة السنوسية المحترمة. فإنهم أحق بالكلام على بلادهم»[1]. ويقول عن طرابلس «بلادي»، وهو يعني بها القطر الطرابلسي. ولا شك أن هذه كانت نظرة شائعة عند بعض الزعماء الليبيين عندئذ.

ولا ينكر أحد جهاد سليمان الباروني في حركة الجامعة الإسلامية أوائل هذا القرن وفي حرب طرابلس ضد الإيطاليين وقيادته النضال بالسيف والبندقية خلال عشر سنوات تقريباً من أجل تحرير بلاده طرابلس، كما قال. كتب الأمير شكيب أرسلان مقالة بعنوان (فضل الباروني في حياة طرابلس) حوالي سنة 1932. ولكن البعض اتهموا الباروني بالمذهبية الضيقة (الأباضية) والقبلية الجهوية. واعتبروا مقاومته للإيطاليين إنما هي رغبة منه في إنشاء دويلة أباضية في الجبل الغربي (نفوسة)، ونحو ذلك من الاتهامات. وكان هو يحس بذلك فكان يدفع عن نفسه هذه التهمة أحياناً صراحة وأحياناً بالتلميح فكان يدعو إلى الوحدة الإسلامية وتجاوز الخلافات المذهبية، ويقف ضد دعاة الشعوبية في نظره، ويعني بهم دعاة العروبة والوحدة العربية. ولكنه كان، من جهة أخرى، يعزز المذهب الأباضي وينصح بكيفية بقاء أهله خلية خاصة داخل الوحدة العامة. وقال عنه الشيخ أحمد الشريف السنوسي إنه دافع عن طرابلس وبرقة، وإنه الرجل المجرب

(1) أبو اليقظان، سليمان الباروني، 2/184،186.

والعاقل، أمّا عبد العزيز الثعالبي فقد قال إن الباروني قد اكتسب مجده بالسيف[1].

وكان الباروني أيضاً يعتبر تونس منبته العلمي، وله في علمائها وأعيانها قصائد أثناء شبابه. وظل يحن إليها، وقد التجأ إليها بعائلته بعد حرب طرابلس الأولى 1913. وكان ينسق جهوده في المقاومة (1914 ـ 1919) مع زعماء تونس أمثال الأخوين باش حانبه، علي ومحمد. وكذلك مع عبد العزيز الثعالبي الذي كان يقدر الباروني تقديراً كبيراً. ويقول أبو اليقظان أنه حاول الرجوع إلى تونس في شيخوخته أيضاً، وطلب من الحلفاء السماح له بالتوجه إليها فأبوا، وهو يعني بذلك فرنسا التي كانت تستعمر تونس. والمعروف أن الباروني قد توفي في أول مايو 1940 قبيل هزيمة فرنسا على يد ألمانيا. ويذهب الشيخ أبو اليقظان إلى أن الباروني قد طلب اللجوء أيضاً إلى مراكش (المغرب الأقصى) ولكن طلبه رفض. وكان الباروني يعتبر مراكش جزءاً من المغرب العربي. وعمل على تحريره أيضاً من ربقة الاستعمار الأجنبي[2]. وفي تونس ربط الباروني أيضاً علاقات مع البعثة الميزابية العلمية التي كانت تحت إشراف أبي اليقظان. وكان يتابع أخبار هذه البعثة وغيرها من مراسلاته مع أبي اليقظان. وظهر ذلك من الرسالة التي كتبت بخط مفدي زكريا على لسان البعثة (جمعية الوفاق) إعجاباً بالباروني. كما أن هذا قد نوه بالبعثة في قصيدتين.

ويفيد دبوز أن الباروني قد أقام فترة في مرسيليا بعد الحرب الأولى وتنكر إيطاليا لتعهداتها نحو ليبيا. ومن التواريخ نفهم أن الباروني كان في مرسيليا بين 1923 و 1924. وحاول الباروني أن يزور تونس فنزل بأحد فنادقها (تونيزيا بالاص). ويبدو أن ذلك كان بدون علم أو ترخيص السلطات الفرنسية في تونس. ذلك أن هذه السلطات قد طوقت الفندق ومنعت الزيارة عنه وأجبرته على مغادرة البلاد في إحدى البواخر. ومع ذلك تمكن أبو اليقظان وبعض أفراد البعثة من زيارته في اليوم الأول. وفي اليوم التالي أرادوا تكرار الزيارة ففوجئوا بطرد الفرنسيين له. وحين وصل مرسيليا (22 فبراير 1924)

(1) نفس المصدر، 107/2. يقول عنه صديقه أبو اليقظان إنه عمل في بغداد حتى لا يقال عنه أن عمله كان من أجل المذهب، وعمل في مسقط حتى لا يقال عنه أنه بعد انفصاله عن الترك أصبح لا قيمة له. أمّا الجامعة الإسلامية فكان يرى أساسها الهند ثم مصر ثم تونس. ويرى أيضاً أنها لا تخلو من التعصب المذهبي الذي هو أساس كل تفرق. وهكذا كان اتهام الباروني بالمذهبية من قبل خصومه وراء معظم ردود أفعاله تقريباً.

(2) أبو اليقظان (سليمان الباروني)، مرجع سابق، 201/2، 206.

بعث إلى البعثة الميزابية رسالة وقصيدة[1]. وهكذا ظل الاتصال متواصلاً بين الباروني وتونس من جهة وبينه وبين طلبة ميزاب فيها من جهة أخرى.

وكان الباروني قد أحب مصر والعراق ومسقط، ولم يجد حين ضاقت به الدنيا، سوى البلاد العربية ملجأ له رغم أنه بقي على ولائه للدولة العثمانية وحركة الجامعة الإسلامية حتى بعد أن تغيرت موازين الأمور السياسية بعد الحرب العالمية الأولى. قال في مصر قصيدة مطلعها: (هويتك يا مصر وهل في الهوى صبر) وكان قد عاش فيها وأنشأ بها مطبعة وأصدر جريدة ونشر الكتب ومارس التجارة في أول حياته، كما سنرى. أمّا العراق فقد احتضنه لاجئاً بعائلته، وكانت بينه وبين ملكه فيصل مودة، رغم أن الباروني كان ضد ثورة الشريف حسين بحكم ولائه (الباروني) للدولة العثمانية. ولم يجد الباروني سوى بلاط العراق يحتضن ابنه إبراهيم ويوفر له المنحة للدراسة ويوظفه فيما بعد ليعيش هو ووالده. ثم وجد في مسقط حاكماً (السلطان سعيد) وفياً له يقدر جهاده ويتمذهب بنفس المذهب، فاطمأن بالاً، ولكن روح المجاهد وروح الكاتب ظلت تواقة فيه تريد أن تطلع على العالم المجهول وأن تجوب الأرض الممنوعة. كانت معظم البلدان المجاورة مغلقة في وجهه لأنه بدون تابعية (جنسية)[2]. وقد خطط مع السلطان سعيد لزيارة الهند. وفي بومباي أدركته الوفاة في مايو 1940، كما أشرنا.

الباروني والقضايا المعاصرة:

لا شك أن أكبر قضية شغلت نفسه هي الجامعة الإسلامية وحرب طرابلس. وقد ظهر اسمه في كلتيهما. فكان نائباً في البرلمان العثماني لأنه آمن بحركة الجامعة الإسلامية التي تزعمها جمال الدين الأفغاني ثم السلطان عبد الحميد الثاني. لا نعرف الآن مدى تأثر الباروني بأفكار الأفغاني الذي ترك في مصر تلاميذ وتراثاً قوياً. ولكن ولاء الباروني للسلطان عبد الحميد كان واضحاً في مختلف كتاباته رغم تعرضه للاعتقال والمضايقات على يد وكلاء هذا السلطان. ذلك أن إيمان الباروني بالنهضة الإسلامية والوحدة الإسلامية كان أعمق من أن تؤثر فيه الأحداث العابرة. وقد ذكرنا أن هذه الفكرة ظلت

(1) دبوز (أعلام الإصلاح)، ص 1، دار البعث، قسنطينة، 1978، جزء 3، ص 278 ـ 279.

(2) كان العراق يشترط إقامة خمس سنوات لمنح الجنسية. ولذلك أقام الباروني المدة المطلوبة وحصل على التابعية، وبذلك تحرر وأخذ يسافر. وكان قبل ذلك يسافر بجواز مؤقت (رخصة) من مسقط. وكان قد رفض سابقاً أخذ الجنسية الإيطالية. أمّا تركيا فقد رفضت تجديد الجنسية له بدعوى أنه انتقد نظامها اللاديني (اللائكي) على يد أتاتورك، ولم تسمح له بدخول بلادها.

تراوده إلى نهاية حياته. ومن أجلها رفض كل الدعوات الأخرى كالوحدة العربية والعروبة.

وحين ظهرت فكرة الجامعة العربية (على ألسنة الصحافة فقط عندئذ) رأى الباروني أنها تصلح في المشرق ولكنها لا تصلح في المغرب العربي لعدم وجود غير المسلمين فيه، ورأى أن المغرب العربي لا تنفعه إلاّ الجامعة الإسلامية. وفي مراسلة مع أبي اليقظان نصح الباروني بعدم المساس بالجامعة العربية في المشرق، بل طالب بتأييدها. ولكنه قال إنها لا تنفع في المغرب العربي من مصر إلى المحيط، لعدم وجود من «تجب مراعاته» من غير المسلمين. وأخبره بأن يتفاهموا في ذلك «مع إخوانكم، خصوصاً رجال جمعية العلماء»[٦]. والمعروف أن جمعية العلماء ومنها أبو اليقظان نفسه، قد انتصرت لفكرة العروبة والجامعة العربية في مقالات ابن باديس وفي كتابات كتابها ودروس مدرّسيها لأسباب تاريخية وثقافية معروفة، وهي الرد على فرنسة الجزائر ومحاولة إدماجها في فرنسا، وهو ما لم يكن الباروني يدركه جيداً، كما مرّ بنا. وكذلك وجود «غير المسلمين» بكثرة في الجزائر.

وللباروني رأي جدير بالاطلاع حول المؤتمرات العربية والإسلامية التي تكاثرت، سيما خلال الثلاثينات. ومن رأيه أنها مضيعة للجهود والمال، وأنها لا تخدم إلاّ أغراض المستعمرين لأنها تنفعهم في صرف الجهود في مجالات أخرى غير العمل على التخلص من الاستعمار نفسه، ثم أنها قد تضر بالوحدة المنشودة سواء كانت عربية أو إسلامية. وقال إن المؤتمر العربي والمؤتمر الإسلامي يضعف أحدهما الآخر. ودعا إلى قيام جمعية دائمة تتكفل بمشروع الوحدة ومعالجة قضيتها مع ضرورة التصريح بالأهداف والتكتم عليها.

وهناك خطوات للاستقلال والوحدة في رأيه. فعند انعقاد المؤتمر العربي العام سنة 1932 قدّم الباروني رأيه في برنامجه ولاحظ أن أول ما يجب الاهتمام به هو تصفية الاستعمار. أمّا بشأن بلدان المغرب العربي فقد قال عن الجزائر إنها في حاجة إلى أمير وطني (حاكم أهلي) يكون مؤقتاً تحت الانتداب الحقيقي حتى تستعد البلاد للاستقلال. أمّا تونس والمغرب فلا تحتاجان سوى إلى رفع حالة الحماية الفرنسية لكي تستقلا. وأمّا طرابلس ففي رأيه أنها تحتاج إلى تعميق استقلالها الداخلي الذي اتفقت بشأنه مع ايطاليا سنة 1919، وكان هو طرفاً في هذا الاتفاق. ولكن ما المقصود «بتعميق الاستقلال

(1) نفس المصدر، 196/2.

الداخلي»؟ ولماذا لا يكون التخلص من الاستعمار الإيطالي أيضاً واستقلال البلاد؟

ومن رأي الباروني أن الاتحاد وليس الوحدة هو الذي يجب أن يكون الهدف لكل المحاولات في المستقبل. فبعد تحقيق الاستقلال يبدأ النظر والسعي لوضع أساس الاتحاد وليس التوحيد، كما قال. وتنعقد على ذلك معاهدة لتحقيق الاتحاد (الفيدرالي؟). ومن رأيه أن «التوحيد» لم يتحقق أبداً بين البلاد العربية سواء في عهد المأمون أو عهد السلطان عبد الحميد. ومن الواضح أن هناك خلطاً في هذه النقطة لأن المأمون وعبد الحميد لم يكونا خليفتين على بلدان عربية فقط ولكن على دولة إسلامية مترامية الأطراف. ويأتي بعد عقد المعاهدة على الاتحاد، النقاش حول توحيد أسماء الحكومات وأعلامها ومكاييلها وطوابع بريدها إلخ...

والحديث عن ذلك، قبل تحقيق الاستقلال وعقد المعاهدة المذكورة إنما هو، في نظره، مضيعة للوقت. وأخبر الباروني أن في البلاد العربية ملوكاً وسلاطين وأئمة وأمراء ولكنهم جميعاً بدون قوة حقيقية وعصرية.

وأثناء وجوده في العراق ومسقط كانت تدور في الجزيرة العربية حرب بين السعوديين وخصومهم. وكان على الباروني أن يقول رأيه كزعيم معاصر في هذه الحرب. ولكنه وقف منها موقف الحياد. ولا ندري هل كان ذلك لسبب مذهب أو غيره. وإنما له رأي لا يخلو من حكمة وهو اعتباره تلك الحرب ضد مصلحة الإسلام والعروبة، وأنها كانت فقط لصالح الاستعمار. وبهذا الصدد كان غير راضٍ على كلمتي عربي - تركي، وهي من الكلمات التي شاعت في وقته سيما على ألسنة الغرب والحركة الصهيونية لتعميق الخلاف بين العناصر القومية في الدولة العثمانية القديمة. وكان الباروني يرى أن تداول الكلمتين دعاية غير شعورية لخدمة أهداف الاستعمار وتوطيد بقائه[1]. وللباروني رأى أيضاً في المؤتمر الإسلامي بالقدس (1931)، وكان أبو اليقظان ينشر مداخلاته في جرائده كالنور والأمة، إلخ. كما كانت له آراء في عصبة الأمم وفي نزع السلاح ومختلف القضايا الدولية الأخرى.

وقد كانت بين الباروني وشكيب أرسلان حساسيات مرجعها، فيما يبدو، إلى الموقف من إيطاليا ومن الدولة العثمانية. فعند وفاة أحمد الشريف السنوسي ألقى شكيب أرسلان خطبة في حفل التأبين ونشرها في جريدة (الجهاد). ومما جاء فيها، حسب نقل

(1) أبو اليقظان (سليمان الباروني)، مرجع سابق، 2/152،157،160، 174.

أبي اليقظان، أنه لولا جهاد أحمد الشريف لاستولت إيطاليا على طرابلس وبني غازي خلال الشهر الأول من حملتها، ولولاه لما استطاع أنور باشا (قائد الجيش العثماني في ليبيا) ولا الدولة العثمانية أن يدافعا عن طرابلس شهراً واحداً. وحين قرأ الباروني في بغداد هذا الكلام لم يعجبه ورآه استنقاصاً من دوره في الجهاد، كما رآه استنقاصاً من دور أنور باشا والخليفة العثماني. ومن رأي الباروني أن أحمد الشريف لم يلعب دوراً رئيسياً لأنه كان يقيم في الخارج، رغم أنه لا ينكر دوره في المقاومة ضد الايطاليين. وقد عاب الباروني على شكيب أرسلان خلطه بين كفاح طرابلس وبني غازي مكرراً رأيه السابق وهو أنه «لا علاقة لأحد القطرين بالآخر في الحرب» واتهمه بأنه «تعمد هذا المزج لأمر ما» تلميحاً ربما إلى أن ذلك المزج يخدم العائلة السنوسية وحدها. ولما أحس شكيب أرسلان بأنه قد أهمل دور الباروني في خطبة التأبين المذكورة كتب مقالاً آخر في (الجهاد) نوّه فيه بـ (فضل الباروني في جهاد طرابلس). ومما جاء فيه أنه عارف بدور الباروني في الجهاد وأن أحداً لا يباريه في ذلك. وقال أرسلان: إن الباروني «ثار بقومه الفرقة الأباضية قبل الجميع في غربي طرابلس»[1].

وظلت هذه الحساسية بين الباروني وشكيب أرسلان قائمة إذ عادت إلى الظهور سنة 1937. في هذا التاريخ نشر شكيب أرسلان رأيه في الوحدة العربية والعروبة. وكان من رأيه أن الوحدة تقع بين دول مستقلة أمّا البلاد المستعمرة، مثل شمال أفريقيا فعليها أن تتحرر أولاً ثم تنضم إلى وحدة الدول المستقلة. وقد فهم البعض، ومنهم الباروني، أن شكيب أرسلان يعني أن منطقة المغرب العربي منطقة إسلامية ولكنها مستعمرة وأنه بذلك أخرجها من مفهوم البلاد العربية، واتهمه خصومه في المشرق بأنه (أرسلان) كان يجامل الدول المستعمرة مثل إيطاليا وفرنسا اللتين تحتلان المغرب العربي على حساب آمال وطموحات شعوب المنطقة. ورغم أن الباروني كان من المؤمنين بالوحدة الإسلامية لا العربية فإنه وجد في رأي شكيب أرسلان فرصة لمهاجمته في مقالة نشرها في مجلة (الرابطة العربية) كما نشرتها له جريدة (الأمة) التي كان يصدرها أبو اليقظان. وقد انتصر الثعالبي للباروني ودافع عن عروبة شمال أفريقية قديماً وحديثاً[2].

(1) أبو اليقظان (سليمان الباروني)، مرجع سابق، 194/2، نشرت كلمة شكيب أرسلان في الباروني في جريدة (الجهاد)، أبريل 1932.

(2) نفس المصدر، 198،196/2. ويقول الثعالبي إنه لا يعتقد أن أرسلان جاد حين شك في عروبة شمال أفريقية، بل كان يلفظ لفظ السياسيين. ثم تساءل الثعالبي: «من يستطيع أن يتجاهل عربية =

ويبدو أن الباروني نفسه قد أخذ يغير رأيه أيضاً إذ كتب رسالة خاصة إلى أبي اليقظان ينصحه وإخوانه الميزابيين بعدم المس بفكرة الجامعة العربية التي يدعو إليها شكيب أرسلان وأمثاله، وطلب منه تأييدها في المشرق دون المغرب، كما ذكرنا سابقاً. والمعروف أن ابن باديس قد انتصر لفكر شكيب أرسلان في عدم اعتبار شمال أفريقيا عندئذ جزءاً من حركة الوحدة العربية إلى أن يستقل. وقد فهم ابن باديس أن المسألة سياسية، أمّا عروبة شمال أفريقية فلا ينازع فيها حتى شكيب أرسلان[1].

تآليفه ونشاطه الصحفي:

منذ وقت مبكر تفطن الباروني إلى أهمية الطبع والنشر. وكانت حركة الطبع في مصر نشطة وتساعد الرجل الطموح أمثال الباروني. وكان الباروني يقيم في مصر في مطلع هذا القرن. فأسس هناك حوالي سنة 1907 المطبعة البارونية التي سماها (مطبعة الأزهار) سنة 1325 هـ. وقد افتتح النشر فيها بكتاب في التاريخ هو (الأزهار الرياضية) ـ ولعل اسم المطبعة مستوحى من هذا العنوان ـ والكتاب في تاريخ مدينة تيهرت أيام الرستميين في القرنين الثاني والثالث من الهجرة. ثم توالت المنشورات، فكان منها: ديوان السيف النقّاد لإبراهيم بن قيس الحضرمي (القرن 5 هـ)، ثم (وفاء الضمانة بأداء الأمانة) للشيخ محمد بن يوسف أطفيش، شيخ الباروني. وقيل إنه طبع منه الجزئين الثاني والثالث فقط.

وقد صدرت عن مطبعة الأزهار كتب أخرى نذكر منها: حاشية المسند للسالمي، وديوان الباروني، ورسالة سلّم العامة، وعلى العموم فهي كتب في تاريخ وفقه وأدب المذهب الأباضي. وصدر عنها أيضاً كتاب (جواهر الأكليل) للشيخ خليفة بن حسن القماري، وهو نظم المختصر للشيخ خليل بن إسحاق في المذهب المالكي. وكانت الكتب الصادرة عن مطبعة الأزهار تباع في مكتبة يوسف بن مسعود بقسنطينة.

ورغم سوق المشرق، فإن سوق المغرب العربي كان أولى بمنشورات الباروني لصلتها بالمذهب الأباضي وتاريخ المنطقة. ولذلك ربط الباروني علاقات تجارية مع أدباء

= أفريقية الشمالية من مصر إلى المحيط وإن زعم الزاعمون أنهم بربر فقد أطلق المحققون من علماء الأجناس أن برابرة جنوبي الأطلس انحدروا من جزيرة العرب في أحقاب مختلفة من التاريخ... فهم عرب قديماً وحديثاً، وبلادنا موطن من مواطنهم».

(1) أنظر بحثنا (شكيب أرسلان والحركة الوطنية الجزائرية) في الكتاب التذكاري لنقولا زيادة، 1990.

وتجار ميزاب الذين يعرفهم من قبل شخصياً أو بالمراسلة ليساعدوه على ترويج مطبوعاته. وحين زار الجزائر في رجب 1325، جعل عنوانه فيها هو: سليمان الباروني النفوسي. ويخبرنا صديقه أبو اليقظان أن الحرب التي اندلعت بين إيطاليا والدولة العثمانية وجهاد الباروني فيها قد أثرت على المطبعة في مصر وعلى وصول الكتب إلى الجزائر أيضاً. ثم حلت الحرب العالمية، وتعطلت الحركة التجارية عموماً. ومنع الباروني من دخول مصر. وكاد لا يجد قوت يومه. وهكذا بقيت المطبوعات مخزونة في مصر، وكانت تقدر بخمسة عشر ألف نسخة. وقيل إنه فكر في وقفها، وعرض الموضوع على أصحابه في الجزائر، فاستقروا على جلب كميات منها لبيعها وإرسال ثمنها إليه ليعيش منه. وكان إبراهيم أطفيش قد هاجر إلى مصر ولعله كان عندئذ هو المتوكل على أمور الباروني في مصر. فقد قام بتجليد كميات من الكتب المطبوعة وإرسالها في صناديق إلى الجزائر. وكان إبراهيم امتياز صاحب دور واضح في الموضوع بالجزائر. ويقول الشيخ أبو اليقظان إنهم قد اتصلوا بثلاثة صناديق منها[1].

اهتم الباروني أيضاً بالتأليف في المرحلة الثانية من حياته، ونعني بها فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى وأثناء استقراره في العراق ومسقط. ورغم طول المدة فإننا لا نعرف أنه قد أصدر ما نوى من كتب، وعلى الأقل تجربته النضالية، وتاريخ طرابلس. ولولا ما جمعته ابنته، زعيمة الباروني، له من وثائق وتقارير ومراسلات، لضاع تراثه[2]. ويبدو أن وثائقه لم تضع رغم تنقلاته. حقيقة أنها عانت من الترحال ولكن وصلت إليه، حسب المصادر. لم يكن الباروني يعرف غير العربية، وكانت أحداث كثيرة قد سجلت بلغات غربية عن طرابلس وعن الباروني نفسه. ولذلك استأجر الباروني من كان يترجم له عن الفرنسية والإيطالية حول حرب طرابلس لكي يضمن ذاك كتابه الموعود (تاريخ الحرب في طرابلس الغرب، 1911 ـ 1919). ولا شك أن ذلك كان يكلفه مالاً لا قبل له به. ومعظم التراجمة كانوا في مصر والجزائر وتونس.

قلنا إن وثائقه قد عانت من الإهمال والترحال. وقد بقي بعضها في السلوم. وحين

(1) أبو اليقظان (سليمان الباروني)، مرجع سابق، 2/107،108. انظر مقالتنا (لعنة ميرانت) في كتابنا (أفكار جامحة)، الجزائر، 1988. فقد تحدث منشور صادر عن الحكومة العامة بالجزائر سنة 1913 عن وصول الكتب من المشرق وضرورة مراقبتها.

(2) بالإضافة إلى (صفحات خالدة) لزعيمة الباروني و (سليمان الباروني) لأبي اليقظان هناك كتاب ثالث لأبي القاسم الباروني عنوانه (حياة سليمان الباروني) لم تطلع عليه.

ذهب الباروني إلى إسطانبول حاول جلبها عن طريق بيروت حين كان ابنه هناك. وبعد استقراره في مسقط استجلب بقية وثائقه، فجاءته في أربعة صناديق بعد معاناة مع شركة النقل التي أبت تسليمها إلاّ بكفالة من البنك. ولكن الباروني قدّر ذلك الموقف، فأين هي وثائق الباروني اليوم؟ وهل ألف أو شرع في تأليف كتابه المذكور؟ لقد أقام في بغداد وفي مسقط. وكان له أبناء وبنات. ولولا ما جمعته ابنته زعيمة في صفحاتها الخالدة لما اطلعنا على جهاد والدها إلاّ من خلال الكتب الأجنبية. فهل هذا هو حظ رجل طبع اسمه في التاريخ كالباروني؟[1].

وقد أصدر الباروني أيضاً صحيفة بعنوان (الأسد الإسلامي) في مصر سنة 1326 (1908)، كما ذكرنا. ويبدو من عنوانها أنها صحيفة للدفاع عن قضايا الإسلام والمسلمين. وكانت مصر في هذه الفترة مليئة بالصحف الحرة والرسمية، وبالصحف الموالية لهذه الدولة أو تلك. ولا ندري ما إذا كانت (الأسد الإسلامي) تعمل لصالح الدولة العثمانية. ذلك أنها لم تدم طويلاً ولم يصدر منها سوى بضعة أعداد. فهل كان لسقوط نظام السلطان عبد الحميد دخل في ذلك؟ إن حرب طرابلس لم تقع إلاّ بعد أربع سنوات من ظهور الصحيفة، ولكنها لم تستمر كل هذه المدة. ومهما كان الأمر فإن صدورها يدل على وعي الباروني بدور الصحافة وطموحه المبكر لاستعمال الكلمة للدعاية والدفاع عن أفكاره.

خاتمة:

إن حياة سليمان الباروني ودوره النضالي والفكري قد تناولتهما عدة دراسات. وقد اطلعنا على البعض منها، ولم نتمكن من الاطلاع على الآخر. وما يزال تراثه الشخصي مغموراً إلاّ ما نشرته ابنته وبعض الوثائق في كتاب أبي اليقظان وغيره. ولم نعرف أن تدوينه لتاريخ حرب ليبيا ضد الاستعمار الإيطالي قد طبع، ولا كذلك حياته في المشرق (العراق ومسقط) قد نشرت.

ويبدو لنا من مطالعتنا عنه وقراءتنا لبعض أفكاره أنه كان عبقرية سياسية وأدبية عظيمة. وكانت عبقريته في مستوى طموحه. وقد ظهر في مرحلة شهدت تقلبات جذرية

(1) يجب التنويه بالجهد الذي بذله الشيخ أبو اليقظان حين جمع أيضاً المراسلات التي دارت بينه وبين الباروني، إضافة إلى بعض مقالاته وأخباره، وسياق حياته في كتابه النافع (سليمان الباروني) بجزئيه.

في المنطقة العربية والإسلامية، وصراعاً حاداً بين الشرق والغرب. فكان الزمن من خصومه أيضاً. وقد تمثل نضاله في محورين:

الأول: التمسك بالمذهب الأباضي وإحياء آثاره ومساندة أهله.

والثاني: الدفاع عن الدولة العثمانية وحركة الجامعة الإسلامية. وقد تأثر المحور الأول بفشل مشروع إقامة «الجمهورية الطرابلسية»، وتأثر المحور الثاني بسقوط السلطان عبد الحميد أولاً والدولة العثمانية نفسها ثانياً.

ومنذ حوالي 1922 أصبح الباروني لاجئاً بدون وطن، لأن خريطة العالم العربي قد تغيرت ودخلت شعوبها تحت النفوذ الأجنبي، الاستعمار الفرنسي والإيطالي في المغرب العربي، والانتداب الانكليزي والفرنسي في المشرق العربي. فلم يبق لسليمان الباروني سوى البحث عن جنسية عربية فوجدها عند الملك فيصل (الذي كان الباروني ضد حركة والده الشريف حسين سنة 1916) وعن إقامة عربية في أرض أجداده البارونيين في مسقط. وحين أدركته الوفاة سنة 1940 لم يكن الوطن العربي بجناحيه قد تغير كثيراً عما كان عليه في الحرب العالمية الأولى.

قضايا القدس في مجلة العالم الإسلامي الفرنسية

Revue du Monde Musulman

1924 ـ 1907

حفلت مجلة العالم الإسلامي Revue du Monde Musulman الفرنسية بموضوعات عديدة حول القدس، وفلسطين بعامة، كجزء من اهتمامها بقضايا العالم الإسلامي. وقد ظهرت المجلة في شهر نوفمبر سنة 1907، في باريس، بإشراف مديرها ومؤسسها الفريد لوشاتلييه A. Le Chatelier الذي كان يمدها بآرائه وأبحاثه. وكان لوشاتلييه ضابطاً في الجيش الفرنسي، وتولى في الجزائر عدة وظائف، منها مسؤول الشؤون العربية (الأهلية) في ورقلة جنوب الجزائر، ثم تفرغ للدراسات الإسلامية فألف كتاباً عن الطرق الصوفية في الحجاز (1887) وأسس حلقة دراسية (كرسياً) لعلم الاجتماع الإسلامي في الكوليج دي فرانس College De France بالسوربون، ولكن أبرز أعماله الباقية هي مجلة العالم الإسلامي التي صدر منها 58 عدداً في ظرف قياسي (1907 ـ 1924)[1].

استقطبت المجلة عدداً من الكتاب المتخصصين في التراث الإسلامي وقضاياه المعاصرة، فظهر على صفحاتها بوفا Buvat المتخصص في شؤون المغرب العربي، ولويس ماسينيون L. Massignon المتخصص في شؤون المشرق العربي، وسلوش N. Slouch المتخصص في شؤون اليهود، وسنلاحظ أن معظم الكتابات التي حفلت بها المجلة عن فلسطين واليهود كانت بقلم الكاتبين الأخيرين، ولا سيما سلوش، ولعل هذا الرجل كان من اليهود الفرنسيين رغم أننا لا نملك الدليل الآن، لكن تحيزه واضح من تعاليقه وأحكامه.

ومن خلال ما أوردته المجلة من أخبار عن القدس وفلسطين عامة ندرك أنه كان

---

(1) أضيف إلى عنوانها أنها تصدر عن البعثة العلمية المغربية [الفرنسية]: La Mission Scientifique Du Maroc.

(*) منشور في مجلة (البيان) الصادرة عن جامعة آل البيت (الأردن)، لسنة 1998.